مجلة المعيار ISSN :1112-4377
مجلد: 27 عدد: 3 (رت 72) السنة: 2023

التحليل الحجاجيّ للخطاب– خطبة وعظية "للسان الدين ابن الخطيب الغرناطيّ" نموذجا

The argumentative analysis of the discours - a preaching sermon by Lisan Al-Din Ibn Al-Khatib Al-Gharnati as a model

عمار حمو[1]
طالب دكتوراه مخبر الدراسات النحوية واللغوية بين التراث والحداثة في الجزائر
جامعة ابن خلدون– تيارت
amar.hammou@univ-tiaret.dz
د. بن جلول مختار
مخبر الدراسات النحوية واللغوية بين التراث والحداثة في الجزائر
جامعة ابن خلدون– تيارت
mokhtar.bendjelloul@univ-tiaret.dz

تاريخ الوصول 2022/03/25 القبول 2023/02/18 النشر على الخط 2023/03/15
Received 25/03/2022 Accepted 18/02/2023 Published online 15/03/2023

ملخص:

تهدف هذه الورقة العلمية إلى تحديد مفهوم الخطاب الحجاجيّ ومكوّناته وأهمّ خصائصه، وكذا رصد كيفيّة تحليل الخطاب حجاجيّا، مع اختيار خطبة وعظية للسان الدّين ابن الخطيب الغرناطيّ كنموذج تطبيقيّ لهذه الدراسة.

ولقد تمَّ التوصّل من خلال هذه الدراسة، إلى أنّ الخطاب الحجاجيّ هو عبارة عن خطاب لغويّ يتضمّن مجموعة من التقنيّات، والتّرتيبات، والاستراتجيّات الخطابيّة الهادفة للإقناع، كما تمّ التوصّل أيضا إلى أنّ الدّين، والمنطق، والعرف، هم من أهمّ المصادر الَّتي اعتمد عليها لسان الدّين ابن الخطيب في صناعة حجاجية خطابه الوعظيّ.

الكلمات المفتاحية: الخطاب، الحجاج، الخطاب الحجاجي، الخطابة.

Abstract:

The present research paper attempts to define the concept of argumentative discourse, its components and most important characteristics, as well as to monitor how to analyze argumentative discourse, with the selection of a preaching sermon by "Ibn al-Khatib al-Ghannati" as an applied model for this study.

This research reveals that argumentative discourse is a linguistic discourse that includes a set of techniques, arrangements, and rhetorical strategies that aim to persuade, It was also reveals that religion, logic, and custom are among the most important argumentative sources on which "Lisan al-Din Ibn al-Khatib" relied in making his preaching discourse.

Keywords: discourse, argumentation ,argumentation discourse, rhetoric.

[1] المؤلّف المراسل: **عمار حمو** البريد الإليكتروني: **amar.hammou@univ-tiaret.dz**

1. مقدمة:

يعدّ الحجاج من المفاهيم المركزيّة الَّتي تعكف على دراستها عدَّة تخصصات، مثل البلاغة والتداوليّات واللسانيّات ونظريّات التواصل والحوار، بل وحتّى مجال الإعلام، إنّ هذا الاهتمام المشترك بالحجاج يعود بالدرجة الأولى للمكانة الَّتي يحتلّها هذا المفهوم في حياة الإنسان، فالإنسان كائن محاجج بطبعه، يهدف إلى إقناع غيره بما يذهب إليه من آراء وأفكار وتصوُّرات، فنجد المتكلِّم العاديّ في الحياة اليوميّة يستعملُ الحجاج، ونجد المحامي في المحكمة يستعمل الحجاج لدفاع عن موكّله، ونجد السّياسيّ يستعمل الحجاج لإقناع الجماهير بمشروعه، ونجد الخطيب وعالم الدّين أو الواعظ يستعمل الحجاج لإقناع النّاس بالعودة إلى الله، وتوبة إليه، والإقلاع عن المعاصِي.

من هذا المنطلق اخترنا أن نطرح الإشكاليّة الأتية:

ما المقصود بالخطاب الحجاجيّ؟ وما مكوّناته؟ وما هي أبرز خصائصه ومميّزاته؟ وما الفرق بين الحجاج والخطابة ؟ وكيف يمكن تحليل الخطاب الوعظيّ حجاجيّا؟.

إنّ موضوع هذه الورقة العلميّة هو التحليل الحجاجيّ للخطاب- خطبة وعظية للسان الدّينِ ابن الخطيب الغرناطيّ نموذجا، كما تجدر الإشارة إلى استعمال المنهج التحليليّ النقديّ في الشق النظريّ، والمنهج الحجاجيّ في الشق التطبيقيّ.

ولعلّ من أبرز ما تسعى هذه الدراسة إلى تحقيقه هو الكشف عن مفهوم الخطاب الحجاجيّ ومكوناته وأهمّ خصائصه، وكذا رصد علاقة الحجاج بالخطابة، وصولا إلى تبيان كيفية التحليل الحجاجيّ للخطاب الوعظيّ.

وللإجابة عن الإشكاليّة السابق ذِكرُها، اخترنا أن نُقسّم هذه الورقة العلميّة إلى ثلاثة أقسام رئيسية، حيث سنتناول في القسم الأوَّل: مفهوم الحجاج، مكوّنات الخطاب الحجاجيّ، وخصائص الخطاب الحجاجيّ، أمّا القسم الثاني فسنتناول فيه: مفهوم الخَطَابة وخصائصها، والفرق بينها وبين الحجاج، ومصادر ومنطلقات الحجاج، أمّا القسم الثالث والأخير، فسنخصّصه للجانب التطبيقيّ، حيث سنقوم فيه برصد أهم المصادر الحجاجيّة التي اعتمد عليها لسان الدّين ابن الخطيب في صناعة خطابه الحجاجيّ الوعظيّ.

2. الخطاب الحجاجيّ مكوناته وخصائصه

1.2 مفهوم الحجاج:

جاء في معجم تحليل الخطاب لشارودرP.Charaudeau ومنغنو D.Mainguenean أنّ الحجاج "تمش يرمى إلى العمل على التأثير في رأي شخص أو موقفه بل وحتَّى في سلوكه بوسائل الخطاب"[1]، كما أُشِير للحجاج أيضا في هذا المعجم بأنّه "طريقة في الخطاب، ليست طريقة حواريّة فرديّة صرفة، ولا هي تحاوريّة صرفة ...هو خطاب يدافع المتخاطبون بواسطته عن مواقف قابلة للنقاش"[2]، وإلى جانب التّعريفين السابقين، حدد الحجاج أيضا في القاموس الموسوعيّ للتداولية لموشلر J.Moeschle وآن ريبولA.Reboul، بأنّه "مجموعة التّرتيبات

[1] باتريك شارودو و دومنيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، تر: حمادي صمود وعبد القادر المهيري، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، 2008، تونس، ص: 69.

[2] المرجع نفسه، ص: 72.

والاستراتجيّات الَّتي يستعملها المتكلّم في الخطاب قصد إقناع سامعيه"[1]، وأمّا البلاغيّ بيرلمان فقد حدد الحجاج بأنّه دراسة "تقنيات الخطاب الَّتي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التَّسليم بما يعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك التَّسليم"[2].

يتضح من خلال التَّعريفات السابقة، أنّ الحجاج هو عبارة عن خطاب لغويّ طبيعيّ يتضمّن مجموعة من التقنيّات، والتّرتيبات، والاستراتجيّات الخطابيّة، التي تهدف إلى الإقناع، وحمْل المخاطبين على الإذعان.

2.2 مكونات الخطاب الحجاجي:

يرى اللّسانيّ باتريك شارودو أنّ الخطاب الحجاجيّ يتكوّن "من ثلاثة عناصر على الأقل: قول الانطلاق، (معطى. مقدّمة منطقيّة) وقَول الوصول(خلاصة. حاصل) وقول (أو أقوال) العبور والّذي يمّكن من الاجتياز من قول إلى آخر (اقتضاء– حجة – دليل)"[3]، فالملاحظ إذن؛ أنّ الخطاب الحجاجيّ يتكون من ثلاثة عناصر رئيسية هي: قول أو أقوال الانطلاق، والَّتي تسمّى بمقدمات الحجاج أو منطلقاته، وأقوال العبور والَّتي قد تكون عبارة عن حجج أو روابط للحجاج، وأقوال الوصول، والَّتي يراد بها النتائج الَّتي يريد أن يصل إليها المحاجج، فهذه المكوّنات الثلاثة ضروريّة لأيّ خطاب إذا ما أراد أن يكتسب صفة الحجاجيّة، وقد يلجأ المحاجج في بعض الأحيان إلى إضمار مكوّن من المكوّنات السّابقة، مثل: روابط الحجاج أو نتائجه، ويترك للمخاطب مهمّة استنتاجه.

3.2 خصائص الخطاب الحجاجي:

للخطاب الحجاجيّ خصائص ومميّزات تميّزه عن سائر الخطابات اللُّغويّة الأخرى، وهذه الخصائص حسب البلاغيين بيرلمان وتيتكاه هي:[4]

أ) أن يتوجّه إلى مستمع.

ب) أن يعبّر عنه بلغة طبيعيّة.

ج) أن تكون مسلَّماته احتماليّة.

د) ألاّ يفتقر تناميه إلى ضرورة منطقيّة بمعنى الكلمة.

هـ) أن تكون نتائجه غير ملزمة (احتماليّة غير حتميّة).

يستفاد من خلال هذه الخصائص؛ أنّ مجال الخطاب الحجاجيّ هو مجال التعدّدِ والاختلاف في الآراء والمواقف، ووجهات النظر، وليس مجال الأحاديّة ودوغمائيّة وإقصاء الآخر، فبيئة الخطاب الحجاجيّ هي بيئة الحريّات والاختلاف والتعدديّات.

3. الخطابة مفهومها خصائصها وعلاقتها بنظرية الحجاج.

1.3 مفهوم الخطابة:

تعرّف الخطَابة بأنّها "العلم النظريّ والتطبيقيّ لممارسة الكلام في الجمهور أمام مستمعين يساورهم الشكّ وبحضور معارض، يسعَى الخطيب بخطابه إلى فرض تمثيلاته وصياغاته وإلى توجيه الفعل"[5]، كما حدّدها الباحث أحمد صافي المستغانميّ بأنّها "فنّ محاورة الجماهير

---

[1] جاك مو شلر و آن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، ، تر: مجموعة من الباحثين تحت إشراف عز الدين المجدوب، دار سيناترا، د ط، 1994، باريس، فرنسا، ص: 93.

[2] محمد الأمين طلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة – دراسة في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008، ص: 107.

[3] باتريك شارودو: الحجاج بين النظرية و الأسلوب، تر: أحمد الودرني، دار الكتاب الجديد، ط 1، 2009، بيروت، لبنان، ص: 21.

[4] محمد الامين طلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة – دراسة في بلاغة النقد المعاصر، ص: 107

[5] باتريك شارودو ودومنيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، ص: 490.

وإقناعهم واستمالتهم"[1]، فالغاية من الخطابة إقناع الجماهير بما يذهب إليه الخطيب من آراء وأفكار حول مسائل وقضايَا مشكوكٌ فيها، حيث يحاول الخطيب استمالة الجماهير ودفعهم إلى تبني آرائه وأفكاره ومعتقداته ومواقفه حول القضايا الَّتي تكون محل شكّ ولبس وغموض لديهم، فيحاول الخطيب رفع هذا الشكّ والغموض واللُبس عن الجماهير بمخاطبتهم مباشرة أو عن طريق وسائط بغية التأثير في سلوكهم.

2.3 خصائص الخطابة:

تمتاز الخطَابة حسبَ الباحث أمحمد صافي المستغانميّ بمميّزات وخصائص لخّصها في يلي:[2]

أ) التوجّه لجمهور من النّاس.

ب) الإلقائيّة وما يصحب ذلك من إيماءات وإشارات باليد وغيرها من الجوارح الإنسانيّة.

ج) الأدلة القويّة والحجج والبراهين التي تدعم ما يذهب إليه الخطيب.

د) الاستمالة والتشويق ومخاطبة عواطف النّاس.

هـ) الصدق والواقعيّة في معالجة موضوع الخطبة.

فالَّذي يظهر من خلال جملة هذه الخصائص، أنّ الخطَابة تمتاز بالإلقائيّة والشفويّة والمواجهة المباشرة بين الخطيب وجمهوره، أين يتداخل ما هو لغويّ مع ما هو غير لغويّ مثل: الإشارات باليد وتعابير الوجه، وهذا ما يكسب الخطاب حيويّة وتفاعليّة يستثمرها الخطيب للتأثير في جمهوره، ومن ثَمّ دفعهم للاقتناع بمعتقداته.

3.3 الفرق بين الخطابة والحجاج:

لعلّ من ضمن أهم الفروقات بين الخطَابة والحجاج مسألة حضور الجمهور من عدمه، "فلئن كان جمهور الخطابة حاضرا أمام الخطيب في فضاء مكانيّ محدَّد، فإنّ جمهور الحجاج متعدّد متنوّع يمكن أن يكون حاضرا، كما يمكن أن يكون غائبا"[3]، فجمهور الخطابة هم مخاطَبينَ محدّدين موجودين أمام الخطيب، مثل: الإمام أثناء إلقائه للخطبة في المسجد، أو السّياسيّ أثناء قيامه بحملته الانتخابية، أمّا بنسبة لجمهور الحجاج فقد يكون حاضرًا، وقد يكون غير ذلك، "فالحجاج يكون تلفُّظًا شفويّا أمام مستمعين، مثلما يكون مكتوبا مقروءا متداولا بين جماعة المعنيين به"[4]، فمجال الخطابة إذن؛ هو مجال واقعيّ حضوريّ بين الخطيب وجمهوره، أمّا نظرية الحجاج فيلاحظ في السنوات الأخيرة أنّها تركز على "المكتوب وآليات البرهنة فيه، لأنّ مجال إعمال العقل فيه تحليلا وتأويلا، أوسع ممّا هو متاح في الخطابة"[5]، الّتي تكون في فترة محدّدة ومكان محدّد.

4.3 مصادر الحجاج:

يقسّم بيرمان منطلقات الحجاج إلى عدّة أنواع هي:

أ) الوقائع: وتمثل ما هو مشترك بين جميع النّاس، وهي عبارة عن قسمين، وقائع عينيّة، ووقائع ممكنة ومحتملة.

ب) الحقائق: وتتعلق بالنظريّات العلميّة والتصوّرات الفلسفيّة والدينيّة المتعالية عن التجربة.

---

[1] محمد صافي المستغانمي: الخطيب الناجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، دار ابن كثير، ط 1، 2017، بيروت لبنان ص: 17.

[2] المرجع نفسه، ص: 19-20.

[3] محمد الأمين طلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة – دراسة في بلاغة النقد المعاصر، ص: 110.

[4] المرجع نفسه، ص: 110.

[5] المرجع نفسه، ص: 110.

ج) الافتراضات: وهي أحكام قبلية وآراء متصوّرة سلفا، وتكون موضع موافقة عامة، إلاّ أن التجاوب معها لا يصل إلى الحدود القصوى إلاّ إذا قوّها المسار الحجاجيّ.

د) القيم: تتداخل القيم كأساس للحجاج في الميادين القضائيّة والسياسيّة والفلسفيّة، وتستدعى لدفع المستمع نحو اختيارات وقيم ليست كونيّة، لأنّها ذات صلة بتطلّعات مجموعات خاصة، وهي إمّا مجردة، مثل: العدل والحقّ، أو محسوسة مثل: الوطن.

ه) الهرميّات: إنّ القيم درجات ومراتب، ممّا يعني خضوعها للهرميّة والتراتب، فالعدل مثلا: قد يعتبر أفضل من قيم أخرى نبيلة.

و) المواضع: وهي المقدّمات العامة التي يلجأ إليها المحاجج لبناء القيم وترتيبها، إنّها مخازن الحجج والأطر الناظمة لها وتنقسم إلى أربعة أنواع:

- مواضع الكمّ: وهي المواضع المشتركة التي تقر أنّ شيئا أفضل من شيء لأسباب كمية.
- مواضع الكيف: وتتعلق بالأهمية التي يكتسبها الشيء أو الفعل عند مقارنته بأشياء أو أفعال أخرى.
- مواضع الترتيب: وهي التي تُقِرُ بأفضلية السابق على اللاّحق.
- مواضع الموجود: والّتي تقر بأفضلية الموجود والواقعيّ على الممكن والمحتمل والمفترض .
- مواضع الجوهر: وتتعلق بما يجسّد بشكل أفضل نوعا ما.

من الخلال التدبّر في هذه المنطلقات أمكن اختزالها وتصنيفها إلى ثلاثة مصادر رئيسية للحجاج هي:

الدّين، والمنطق، والعرف، فالقيم الأخلاقية والهرميّات والتصوّرات الدينيّة المتعالية تصنف ضمن الدّين، أمّا الوقائع والمواضع والحقائق العلميّة فتصنف ضمن المنطق، أمّا الإفتراضات فتصنف ضمن العرف أي المعرفة المشتركة بين الناس حول موضوع معين.

4. التحليل الحجاجيّ للخطبة الوعظية للسان الدّين ابن الخطيب الغرناطيّ

1.4 من هو لسان الدّين ابنُ الخطيب الغرناطيّ؟:

هو لسان الدّين محمد ابن عبد الله ابن سعيد المشهور بابن الخطيب، خاتمة أدباء الأندلس بغرناطة سنة 713 للهجرة، وكان أوّل أمره في عداد كُتَّاب السُّلطان أبي الحجّاج يوسف أحد ملوك بني الأحمر، ثُمَّ اصطفاه وجعله وزيرا وفوَّض إليه شؤون مَمْلَكَتِه، ولما مات أبو الحجّاج، وخلفه ابنه، أَقرَّه للوزارة، ثُمَّ وثب إسماعيل أخو السُّلطان على ملكه، فاضطرَّ أن يغادر المغرب مع وزيره لسان الدين، فلمَّا تَحَسَّنَت الأحوال عادَ محمد إلى ملكه، وبَقي مُدَّة كتب له فيها ابن زمرك أحد تلاميذ لسان الدّين، ثُمَّ عاد لسان الدين إلى غرناطة، فألهب ذلك نار الحسد في ابن زمرك وأنصاره، فقاموا بتحريض السُّلطان عليه فهرب إلى المغرب، وأقام عند بني مرين وأكرمه سلطانهم عبد العزيز، وعندما تُوُفّي السُّلطان المرينيّ المغربيّ عبد العزيز، ثارَ أحد الأمراء المرنيين على ابن عبد العزيز، وساعده في ذلك ملك بني الأحمر بشرط تسليمه لسان الدّين، وتمَّ له الأمر، وقُبِض عليه، وسُجِن بفاس، ونظِر في كتاب له بعنوان "المحبّة"، وأفتى الفقهاء بقتلهِ، فدُسّ عليه من خنقه في سجنه سنة 776 لهجرة[1].

2.4 تحليل الحجاجيّ للخطبة:

استهلّ لسَان الدّين ابن الخطيب خُطبتَه بحمد الله سبحانه وتعالى وثناء عليه، وذلك بذكر أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى حين قال: "الحمدُ للهِ الوليِّ الحميدِ، المبدئِ المعيدِ، البعيدِ في قُرْبِهِ من العبيد، القريبِ في بُعْدِهِ وهُوَ أُقْرَبُ مِن حَبْلِ الوَرِيدِ"[2]، ثم أتبع ذلك بالشهادة بوحدانيته وتفرده، والشهادة لرسوله محمد صلى الله عليه وسلَّم بالرّسالة وختام النُبوّة حين قال: "وَنَشْهَدُ أَنَّهُ اللهُ الّذي لا إِلَهَ إِلا هُوَ شهادةً

[1] أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، د ط، د س، الجزء الثالث، ص: 183.

[2] المرجع نفسه: ص، 201.

نَتَخَطَّى بِهَا مَعَالِمَ الخلقِ إلى حَضْرَةِ الحقِّ، على كبدِ التفريدِ، وَنَشْهَدُ أنّ مُحَمَدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ"[1]، ثُمَّ قرأ الآيات الأتية من سورة "قاف"، قال الله تعالى: "وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الوَرِيدِ (16) إِذْ يَتَلَقَّى المتَلَقِّيَانِ عَنِ اليَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ (17) مَّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18) ۞وجَآءَتْ سَكْرَةُ المَوْتِ بْالحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَومُ الوَعِيدِ (20) وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَآئَكَ فَبَصَرُكَ اليَوْمَ حَدِيدٌ (22) سورة "ق" الآيات من 16 إلى 21.

ثُمَّ ختم هذا الاستهلال بالصّلاة والسلام على النبيّ المصطفَى عليه الصّلاة وأزكى السلام.

سوق ابن الخطيب للآيات الكريمة من سورة "ق" في بداية خطبته ليس عشوائيًّا، إنّما ينمّ عن حكمة وفطنة في الخَطَابة، حيث يريد ابن الخطيب من خلال ذلك التَّمْهيد لِموضوُع خطبته، وتهيئة السّامعيين لما سيأتي بعد هذه الآيات، الَّتي تروم الوعظ والتحذير من الغفلة والفسوق العصيان.

غنيّ عن البيان، أنّ الآيات القرآنية السابقة الَّتي أتى بها ابن الخطيب هِي حُجَج ساقها ليُؤَسِّس بها لِخطابه الوعظيّ، ليتضح بذلك أنّ القرآن الكريم هو مصدر من مصادر الحجاج التي سيعتمد عليها ابن الخطيب في صناعة خطابه الحجاجيّ الوعظيّ.

بعد الانتهاء من الاستهلال، شَرع ابن الخطيب في موضُوع خطبته مباشرة حيث قَال:[2]

قَعَدْتُ لِتَذْكِيرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُنْصِفًا لَذَكَّرْتُ نَفْسِي فَهْيَ أَحْوَجُ لِلذِّكْرَى

إِذَا لَمْ يَكُنْ مِنِّي لِنَفْسِي وَاعِظٌ فَيَا لَيْتَ شِعْرِي كَيْفَ أَفْعَلُ فِي الأُخْرَى

يصرّح ابن الخطيب في هذين البيتين الشعريين، بأنّ خطبته هذه ستكون حول تذكير النَّاس بطاعة الله، والالتزام بأوامره، والابتعاد عن نواهيه، والتحذير مِن الدُّنيَا وملذَّاتها، وهذا ما يعرف في الإسلام بالوعظ، كما يشير أيضا، إلى أنّ المنطق يقتضي بأن يبدأ في الوعظ بنفسه أوّلا، ثُمَّ يُتْبِع بذلك جمهوره، وهذه هنا حجة منطقية أوردها ليقول لجمهوره أنّه سيكون أوّل الملتزمين بِما سيذهب إليه في هذه الخطبة.

يضيف ابن الخطيب قائلا في نفس السياق:" آه ! أيُّ وَعْظٍ بَعْدَ وَعْظِ اللهِ تَعَالىَ يَا أَحْبَابَنَا يُسْمَعُ؟ وَفِي مَاذَا وَقَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ يُطْمَعُ؟"[3]، يريد ابن الخطيب في هذا الموضع، أن يُبيِّن لِجمهوره أنّ لا وعظ ولا كلام بعد كلام الله سبحانه وتعالى، وفي ذلك إشارة للآيات الكريمة التي قرأها في بداية هذه الخطبة، والَّتي تتضمّن الوعظ، حيث يريد أن يقول أنّه مهما قال، ومهما وَعظ، ومهما أنذر، فإنّ كلام الله تعالى يبقى الأقوى، لأنّه صادر عن الله سبحانه وتعالى الَّذي هُو أعلى سلطة على الإطلاق .

ثُمَّ توجّه بعد ذلك ابن الخطيب إلى جمهوره من جديد قال: اعلَمُوا – رحمكم الله – أنّ الحكمة ضالَّة المؤمن يأخذها من الأقوال والأحوال ومن الجماد والحيوان وما أملاه الملوان"[4]، تضمَّن كلامه هذا اقتباسًا من الحديث النَبَويّ الشريف (الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المؤْمِنِ أَنَّى وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا)، فهذه هنا حجة جديدة، وهي عبارة عن حديث نبويّ شريف، فمن الواضح إذن؛ أنّ الحديث النَبَوِيَّ الشريف مصدر من مصادر الحجاج الَّتي سيعتمد عليها ابن الخطيب في خطبته هذه.

---

[1] المرجع نفسه: ص، 201.

[2] المرجع نفسه: ص، 202 .

[3] المرجع نفسه: ص، 202.

[4] المرجع نفسه: ص، 202.

ولقد أضاف ابن الخطيب ضمن نفس السياق قال: "إنّ الحقَّ نورٌ لا يضرُّهُ أن صَدَرَ مَنَ حَامِلٍ، وَلاَ يقصرُ بمحمولهِ احتقارُ الحاملين"[1]، يدعو ابن الخطيب جمهوره في هذا الموضع إلى الأخذ بالحقّ، حتّى وإن صدر من أناس غير عدول، لأنّ الأهم هو الحقّ والصواب، وهذه هنا حُجَّة عُرْفِيَّة، فالمتعارف عليه في دُنيا النّاس، أنّ الكاذب قَد يَصْدُق، وُالمسِيء قد يحسن، كما حثّهم على تركيزِ على كلامه لا شخصه.

يواصل ابن الخطيب خطبته يقول: "وأنتم تدرونَ أنّكم في أطوالِ سفرٍ لا تستقرُّ لها دونَ الغايةِ رحلةٌ، ولا تتأتَّى معها إقامةٌ ولا مهلةٌ، من الأصلابِ إلى الأرحامِ إلى الوجودِ، إلى القبورِ إلى النُّشورِ إلى إحدي دَاريِ البقاءِ"[2]، يُذَكِّر ابن الخطيب جمهوره في هذا الموضع بالمراحل الأساسية التي تمر بها حياة الإنسان، وهي مرحلة الأصلاب، ثمّ مرحلة الأرحام، ثمّ مرحلة الوجود في الحياة الدنيا، ثمّ مرحلة القبور، ثمّ مرحلة النَّشر أي يوم القيامة، ثُمّ مرحلة دار البقاء التي هي إمّا الجنة أو غير ذلك، فهذه المراحل هي عبارة عن حقائق دينية أقرَّها الشرع الحكيم، وهي عبارة أيضا عن حجج دينية استعملها ابن الخطيب لتقوية مسار خطابه الحجاجيّ، لأنَّها مناسبة ومتوافقة تماما مع موضوع خطبته.

يضيف ابن الخطيب في نفس السياق يقول: "أفِي اللهِ شكٌّ؟ فَلَوْ أَبْصَرْتُم مُسَافِرًا في البرِّيَّةِ يبْني وَيَفْرِشُ ويُمَهِّدُ ويعرشُ: ألم تَكُونُوا تضحكونَ مِنْ جَهْلِهِ وتَعْجَبُونَ مِنْ رَكَاكَةِ عَقْلِهِ؟"[3]، يُشَبّه ابن الخطيب في هذا الموضع الرّجل الذي غرته الدُّنيَا، وانغمص في ملذاتهَا وشهواتها، بالرّجُل الذي يحَاول إعمار مكان خَرِب، وهذا التَّشْبِيه هنا، هو عبارة عن حجة منطقية ساقها ابن الخطيب ليُبيّن أنّ الانسان الذي يجتهد في الدنيا، ويهمل الآخرة، هو إنسان غافل ركيك العقل، معدوم الحكمة.ثُمَّ يتلو ابن الخطيب قوله تعالى: "إِنَّمَآ أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلاَدُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ" سورة التغابن: 15.

يسعَى ابن الخطيب من خلال إيرادِهِ لهذه الآيّة الكريمة، والحجَّة القرآنية، إلى تدعيم وتقوية مثاله السابق الَّذي أورده حول الرَّجُل الَّذي يَجتهد في إعمار الدُّنيَا وينسى الأخرة، وهذا ليُبَيّن لجمهوره أنّ كلَّ ما يأتي به في هذه الخطبة له سند شرعيّ.

يضيف ابن الخطيب في موضع آخر من هذه الخطبة يقول: "وَرسولُكُم الحريصُ عليكم الرَّؤُوفُ الرَّحيمُ يقول لكم: الكيِّسُ مَنْ دَانَ نفسه وعَمِلَ لما بَعْدَ الموْتِ، والأَحْمَقُ من أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وتَمَنَّى عَلى اللهِ الأَمَانِيَّ"[4]، يذَكِّر ابن الخطيب جمهوره في هذا الموضع بَحديث النَبيّ صلى الله عليه وسلَّم، الذي حثّ فيه على عبادة الله وطاعته، والعمل لِما بعد الموت، وحذّر فيه من مغبَّة الانغماس في المعاصي واتباع الأهواء، والتسويف والتأخير في التوبة والرجوع إلى الله، فهذا الحَدِيث النبَويّ الشّريف هنَا، هو عبارة عن حجَّة مصدرها الدّين، أوردها لسان الدّين ابن الخطيب في خطبته ليقوّي بها خطَابَه الحجاجيّ الوعظيّ.

يواصل ابن الخطيب قائلا لجمهوره ضمن نفس الإطار يقول: "اتَّقُوا اللهَ في نفوسِكم وانْصَحُوهَا واغتَنِمُوا فُرَصَ الحَيَاةِ وَارتَجُوهَا"[5]، ثُمَّ يتلو قوله تعالى: "أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَى عَلَى مَافَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ" سورة الزمر:56 .

يحَذّر ابن الخطيب من خلال كلامه السابق، ومن خلال قرآءته لهذه الآية الكريمة جمهوره من خطورة الغفلة وطول الأمل، ويدعوهم إلى اغتنام الفرصة لطاعة الله وعبادته ما داموا أحياء، حتّى لا يندموا يوم لا ينفع الندم، والآية الكريمة في هذا الموضع، هي عبارة عن حجَّة أتَى بها ابن الخطيب ليُقوّي بها كلامه الَّذي سَبقها.

---

[1] المرجع نفسه: ص، 202.
[2] المرجع نفسه: ص، 202 .
[3] المرجع نفسه: ص، 202.
[4] المرجع نفسه: ص، 203.
[5] المرجع نفسه: ص، 203 .

يواصِل ابن الخطيب خطبته الوعظية يقول: "إِخْوَانِي ما هذا التَّوَانِي والكَلَفُ بالوُجُودِ الفَانِي عن الدَّائِم الباقي والدَّهرُ يَقْطَعُ الأَمَانِي، وهادِمُ اللَّذاتِ قَدْ شَرَعَ في نَقْضِ المباني؟ ألا مُعْتَبِرٌ في عالِم هذهِ المعَانِي؟ ألاّ مُرْتَحِلٌ عن مَغَابِنِ هذه الَمغَانِي؟"[1]، فابن الخطيب يحذّر من خلال كلامه هذا جمهوره من العجز والكسل والقعود عن طاعة الله وعبادته، والإغراق في طلب الدنيَا وملذاتهَا وشهوتهَا، كما يذكرهم في النفس الوقت بحقيقة واقعية مفادها أنّ الإنسان مهما طال عمره فإنّ مصيره سيكون الموت، وهذه الحقيقة الواقعيّة هنا، هي عبارة عن حجَّة مصدرها العرف، فكلّ النَّاس يعلمون أنّ مصيرهم في النهاية سيكون الموت، فعلام العصيان والاستكبار والسعي وراء الأَشياء الفانية.

ثمَّ أتبع ابن الخطيب كلامه هذا بأبيات شعريّة قال:[2]

أَلَا أُذُنٌ تُصْغِي إِلَيَّ سَمِيعَةٌ أُحَدِّثُهَا بِالصِّدْقِ مَا صَنَعَ المَوْتُ

مَدَدْتُ لَكُمْ صَوْتِي فَأَوَّاهُ حَسْرَةً عَلَى مَا بَدَا مِنْكُمْ فَلَمْ يُسْمَعِ الصَّوْتُ

هُوَ القَدَرُ الآَتِي عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ فَتُوبُوا سِرَاعًا قَبْلَ أَنْ يَقَعَ الفَوْتُ.

يؤكّد ابن الخطيب من خلال هذه الأبيات على حقيقة الموت الَّتي كان قد ذكرها من قبل، ورجاؤه من ذلك، وعظ جمهوره وحثّهم على التَّوبة والرجوع إلى الله قبل فوات الآوان.

يتابع ابن الخطيب خطبته يقول: "بَحَثَ الزُّهَّادُ والعُبَّادُ وَالعَارِفُونَ وَالأَوْتَادُ والأَنْبِيَاءُ الَّذِينَ يُهْدَى بِهِمْ العبَاد عَنْ سَبَبِ الشَّقَاءِ الَّذِي لاَ سَعَادَةَ بَعْدَهُ، فَلَمْ يَجِدُو إلاَّ البُعْدَ عَنْ اللهْ تَعَالى، وَسَبَبُهُ حُبُّ الدُّنيَا. لاَ تَجْتَمِعُ أُمَّتِي علىَ ضَلاَلَةٍ"[3]، يَستشهد ابن الخطيب في هذا الموضع بكلام أناس لهم وزن في مجتمعاتهم، حيث يرى أنّهم أجمعوا على أنَّ سبب الشَّقاء في الدنيا هو البعد عن الله تعالى، وهذه هنا حجَّة عرفيَّة مشتركة بين جميع أفراد المجتمع المسلم النابعة من واقعهم المعاش، ويضيفّ إليها حجَّة أخرى تدعمها وهي عبارة عن حديث نَبَوِيّ شريف في حُجّيَة الإجماع، الَّذي قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلَّم : (لاَ تَجْتَمِعُ أمَّتي على ضَلاَلَةٍ).

يواصل ابن الخطيب خطبته يقول : "قالوا : مَا أَوْرَدَ النَفْسَ المَوَارِدَ، وفَتَحَ عَليها بابَ الحتفِ إلاَّ الأَمَلُ، كُلّمَا قوَّمَتْهَا مثاقفُ الحدودِ فَتَحَ لهَا أَرْكَانُ الرُّخَص، كُلّما عقدت صومَ العزيمةِ أَهْدَاهَا طَرْفُ الغرور في أطباقٍ حتّى وإذا ولكن وربّما، فأفرطَ القلبُ في تقليبهَا حتّى أفطر"[4]، يتضمَّن كلام ابن الخطيب في هذا الموضع إشارة إلى ما يسمَّى بطول الأمل، وخطورته على الإنسان المسلّم، حيث يؤدّي به إلى المعاصي، ويدفعه إلى الفسوق، وهذا حاصل في دنيا النَّاس، شائع في تصرفاتهم وسلوكاتهم وفي واقعهم المعاش، فهذا الكلام في هذا الموضع، هو عبارة عن حجَّة مصدرها العرف، إذ النَّاس يعلمون أنّ من بين الأسباب الَّتي تدفعهم إلى المعاصي هي طول الأمل، وتمنّى على اللهِ الأمانيّ.

يؤكّد ابن الخطيب على هذه الفكرةِ يقول:[5]

مَا أَوْبَقَ الأَنْفُسَ إِلاَّ الأَمَلُ وَهُوَ غُرُورٌ مَا عَلَيْهِ عَمَلُ

يَفْرِضُ مِنْهُ الشَّخْصُ وَهْمًا مَا لَهُ حَالٌ وَلاَ مَاضٌ وَلاَ مُسْتَقْبَلُ

يواصل ابن الخطيب خطبته قائلاً: "مَعَانِي هذا المجلسِ واللهِ نسيمُ سحرٍ، إذا استنشَقَهُ مَخْمُورُ الغفلةِ، أفاقَ سعوط هذا الوعظِ يَنْقُضُ إن شاء الله زَكمةَ البطالةِ، إنَّ الذِي أَنْزَلَ الدَّاءَ أنزلَ الدَّوَاءَ، إكسيرُ هذَا الكتابِ يُلقَّبُ بحكمةِ جابرِ القلوبِ"[1]، في نهاية هذه الخطبة، يحاول ابن

[1] المرجع نفسه: ص، 204.
[2] المرجع نفسه: ص، 204.
[3] المرجع نفسه: ص، 206.
[4] المرجع نفسه: ص، 206.
[5] المرجع نفسه: ص، 206 .

الخطيب أن يقول لجمهوره أن الذي حضر هذا المجلس لابدّ أن يجدِّد التوبة، ويعود إلى الله، ويستغفر الله على مافته، ولكنّ ذلك لا يتمّ إلاّ لِمَن كان له قلب يسمع به، أمّا الإنسان الذي ليس له قلب فلا يؤثر فيه هذا الكلام أو غيره، ثمّ تَلى قوله تعالى:"إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالمَوْتَى يَبْعَثُهُمْ اللهُ ثُمَّ إِلَيهِ يُرْجَعُونَ" سورة الأنعام: 63، فهذه الآية القرآنية تؤكّد ما يذهب إليه ابن الخطيب من أنّ ذوي القلوب الحية هم وحدهم الَّذين ستأثر فيهم هذه الخطبة، فينهضون إلى عبادة وطاعة الله تعالَى، أمّا الَّذين قلوبهم ميّتة، فنسأل الله أن يحيها.

ولقد اختتم ابن الخطيب خطبته هذه قال: "إلهي، دُلَّنَا من حيرةٍ يضل فيها إلاّ إن هَديتَ الدّليلَ، وَأَجِرْنَا منْ غَمْرَةِ نفوسٍ صَدِئَ منْ مَرَّ الأزمانِ مِنْهَا الصَّقيلُ، ونَبَا بِجُنُوبِهَا عنْ الحقِّ المقيلُ، وآذانٍ أنهضَهَا القولُ الثَّقِيلُ، وَعَثَراتٍ لاَ يَقْبَلُهَا إلاّ أنت، يا مقيلَ العثراتِ، يَا مقيلُ أنتَ حسبنَا ونِعمَ الوكيلُ"[2]، نلاحظ أن ابن الخطيب اختار أن يختم خطبته هذه بالدعاء له ولجمهوره، وهذا لتناسب الدعاء مع موضوعه ذُو الطبيعةِ الدينية.

بناء على ما سبق، ومن خلال التحليل الحجاجيّ لهذه الخطبة، نستنتج أنّ معظم الحجج الَّتي وظَّفها ابن الخطيب في هذه الخطبة هي حجج دينية، تنوَّعت بين آيات قرآنية وأحاديث نبويَّة شريفة وأقوال وحكم لعارفين وزهَّاد وعبَّاد، كما اعتمد أيضا على أبيات شعريّة خاصة به، فهو كما نعلم شاعر وأديب، كما اعتمد أيضا على آلة المنطق والحقائق العرفيّة المشتركة لدى جميع النَّاس، فثلاثية الدّين والمنطق والعُرف كانت حاضرة في خطابه، مما أكسبه حجاجيّة عالية وقوة إقناع ثاقبة.

5. خاتمة:

وفي الأخير تمّ التوصّل إلى النتائج الأتية:

الجانب النظريّ:

- الحجاج هو عبارة عن خطاب لغويّ طبيعيّ يتضمّن مجموعة من التقنيّات والتّرتيبات والاستراتجيّات الخطابيّة التي تهدف إلى الإقناع.
- يتكوّن الخطاب الحجاجيّ من ثلاثة عناصر رئيسية هي: قول أو أقوال الانطلاق وهي الَّتي تسمّى مصادر الحجاج أو منطلقاته، وأقوال العبور وقد تكون عبارة عن حجج أو روابط للحجاج، وأقوال الوصول ويراد بها النتائج الّتي يريد أن يصل إليها المحاجج.
- من أهمّ مميّزات الخطاب الحجاجيّ، أنه يكون بلغة طبيعيّة، وأن يتوجّه إلى مستمع، وأن تتميّز مسلّماته ونتائجه بالاحتماليّة ليبتعد بذلك عن الإلزاميّة والضّرورة المنطقيّة.
- تمتاز الخطابة بالإلقائيّة والشفويّة والمواجهة المباشرة بين الخطيب وجمهوره، أين تتداخل الجوانب اللّغويّة وغير اللّغويّة، ليكتسب الخطاب بذلك حيويّة وتفاعليّة يستثمرها الخطيب للتأثير في جمهوره، ومن ثَمَّ دفعهم للاقتناع بمعتقداته.
- إنّ مجال الخطابة هو مجال واقعيّ حضوريّ بين الخطيب وجمهوره، أمّا الحجاج فإلى جانب حضوره في الخطابة الّتي تكون شفويّة، فإننا نجده أيضا في الكتابة، حيث يلاحظ مؤخرا في الدراسات الحجاجيّة المعاصرة زيادة الاهتمام بالمكتوب، وآليات البرهنة والإقناع فيه.
- يمكن اختزال وتصنيف منطلقات أو مصادر الحجاج الّتي أتى بها بيرمان إلى ثلاثة أبواب رئيسية للحجاج هي: باب الدّين، وباب المنطق، وباب العرف، فالقيم الأخلاقيّة والهرميّات والتصوّرات الدينيّة المتعالية تصنف ضمن باب الدّين، أمّا الوقائع والمواضع والحقائق العلمية فتصنف ضمن باب المنطق، أمّا الإفتراضات فتصنف ضمن باب العرف.

---

[1] المرجع نفسه: ص، 207 .

[2] المرجع نفسه: ص، 208.

الجانب التطبيقيّ:

- تلاوة ابن الخطيب للآيات كريمة من سورة "ق" في بداية خطبته تهدف للتّمهيد لموضوع خطبته، وتهيئة السّامعيين لما سيأتي بعد هذا الاستهلال.
- الآيات القرآنية السابقة من سورة "ق" هي عبارة عن حجج ساقها ابن الخطيب ليؤسّس بها لخطابه الوعظيّ.
- القرآن الكريم هو مصدر من مصادر الحجاج الّتي اعتمد عليها ابن الخطيب في صناعة خطابه الحجاجيّ الوعظيّ.
- موضوع خطبة ابن الخطيب هو تذكير النّاس بطاعة الله، والالتزام بأوامره، والابتعاد عن نواهيه، والتّحذير من الدّنيا وملذّاتها، وهذا ما يعرف في الإسلام بالوعظ.
- يعتبر المنطق مصدرا من مصادر الحجاج عند ابن الخطيب ويظهر ذلك حين قال بأنّه سيكون أوّل الملتزمين بما سيذهب إليه في هذه الخطبة.
- كلام الله تعالى يبقى الأقوى في الوعظ، لأنّه صادر عن الله سبحانه تعالى الّذي هو أعلى سلطة على الإطلاق.
- الحديث النّبويُّ الشريف يعتبر مصدرا من مصادر الحجاج التي يقوم عليها الخطاب الوعظيّ لدى ابن الخطيب، ويظهر ذلك من خلال الاقتباس منه في عدّة مواضع، نذكر منها "الحديث الشريف" الحكمة ضالّة المؤمن أنّى وجدها فهو أحقُّ بها، والحديث الآخر حول الإجماع، لا تجتمعوا أمّتي على ضلالة.
- يعتبر العرف مصدرا من مصادر الحجاج في الخطاب الوعظيّ لابن الخطيب .
- الأهمّ هو الحقُّ والصواب ولا يهم الجهة الَّتي يصدر عنها، فالمتعارف عليه في دنيا النّاس، أنّ الكاذب قد يصدق، والمسئ قد يحسن.
- استعمل ابن الخطيب التّشبيه كآليه منطقيّة للإقناع، وذلك حين شبّه الرّجل الّذي يجتهد في طلب الدّنيا وملذّاتها وينسى الآخرة، بالرّجل الّذي يعمِّر مكان خربا.
- الموت هو مصير كل إنسان مهما طال عمره، والكيّس من النّاس من عمل لما بعده.
- من الأسباب الّتي تدفع النّاس إلى المعاصي الغفلة وطول الأمل وتماني على الله الأمانيّ.
- لا ينفع الوعظ ولا التذكير إلاّ أصحاب القلوب الحيّة، فيجددون بذلك التوبة وينهضون إلى طاعة الله وعبادته.
- لا يأتي ابن الخطيب بقول ولا فكرة في هذه الخطبة إلاّ ويتبعها بما يدعمها من الكتاب والسنّة أو من المنطق والعرف والواقع المعاش.

قائمة المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم: مصحف المدينة النبويّ للنشر الحاسوبي. مجمع الملك فهد للطباعة، 1435هـ،المدينة المنورة.
2. أحمد زكي صفوت: جمهرة خطب العرب في العصور العربية الزاهرة، المكتبة العلمية، د ط، د س،.
3. باتريك شارودو ودومنيك منغنو: معجم تحليل الخطاب، تر: حمادي صمود وعبد القادر المهيري، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، 2008، تونس.
4. باتريك شارودو: الحجاج بين النظرية و الأسلوب، تر: أحمد الودرني، دار الكتاب الجديد، ط 1، 2009، بيروت، لبنان
5. جاك مو شلر و آن ريبول: القاموس الموسوعي للتداولية، ، تر: مجموعة من الباحثين تحت إشراف عز الدين المجدوب، دار سيناترا، د ط، 1994، باريس، فرنسا.
6. عبد اللطيف عادل: بلاغة الإقناع في المناظرة، دار الأمان، ط 1، 1434هـ– 2013م، الرباط، المغرب.
7. محمد الأمين طلبة: الحجاج في البلاغة المعاصرة – دراسة في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط1، 2008 .
8. محمد صافي المستغانمي: الخطيب الناجح بين عوامل الإقناع ووسائل الإمتاع، دار ابن كثير، ط 1، 2017، بيروت، لبنان .